بسم الله الرحمن الرحيم

صاحب المجلة
محمد محمود علوان
شيخ مشايخ الطرق الصوفية

رئيس التحرير
محمد صبيح

سكرتير التحرير
طه عبد الباقي سرور

مجلة
الإسلام والتصوف

مجلة أسبوعية تصدر شهرية مؤقتا
تصدر عن مشيخة الطرق الصوفية

"ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"

الاشتراك السنوي
٦٠
في الجمهورية العربية المتحدة
٥
ثمن العدد
العنوان
مشيخة الطرق الصوفية
بميدان سيدنا الحسين
القاهرة
تلفون ٥١٣٩٣

العددان السابع والثامن « السنة الرابعة » عن شهرى ديسمبر ١٩٦١ ويناير ١٩٦٢

رسالة التصوف الاسلامى

ومكانها من الفكرة الإسلامية

لسماحة السيد محمد محمود علوان
شيخ مشايخ الطرق الصوفية

فى ألسنة بعض الباحثين ، وفى أقلام بعض المفكرين ، فكرة قلقة عن التصوف الإسلامى ورسالته .

يتساءلون دائماً كيف نشأ التصوف ؟ وكيف استقل بمنهجه وأذواقه فى السلوك والمعرفة ؟ وما هى رسالته التى تميزه وتخصصه فى الأفق الإسلامى ؟ وما حدود هذه الرسالة ، وما صلتها بالله ؟ وما هو أثرها فى الحياة ؟

وإلى هؤلاء وهؤلاء ، وإلى الباحثين عن الحقيقة، نسوق الحديث مدعما بالدليل، التاريخى ، والعلمى ، والذوق .

لقد بدأ التصوف الإسلامى ، فى قلب المجتمع الإسلامى ، منبثقاً من القرآن ، ومن هدى الرسول ، بدأ كما بدأ الفقه ، والحديث ، وعلم الكلام ، وسائر ألوان المعرفة التى شكلت الثقافة الإسلامية ، وعبرت عن جوهرها وطبيعتها .

لقد كان الصحابة جميعاً رضوان الله عليهم ، نماذج كاملة للفكرة الإسلامية الشاملة سلوكا ومعرفة .

كانوا علماء وفقهاء ، وزهادا وعبادا ، ومجاهدين فى سبيل الله، وفى سبيل الكمال النفسى والخلق .

فلما حدث الأنقسام والانشطار بين العقيدة والسلوك . وأقبل قوم على الشهوات والرغبات ، وأقبل آخرون على الخصومات والرياسات واحترف غيرهم الجدل والحوار فى الذات والصفات ، تميز المعتصمون بهدى الصدر الأول ، العاكفون على قلوبهم بالتحلية والتخلية ، المراقبون الله فى أنفاسهم وأعمالهم بأسم الصوفية .

يقول علامة التاريخ الإسلامى ابن خلدون فى مقدمته : « التصوف من العلوم الشرعية ، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور ، من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق إلى الحق ، وكان ذلك عاما فى الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح ، ولما عم الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة بأسم الصوفية » .

ويقول الإمام القشيرى فى رسالته محدداً هذه البداية ،شارحا لها : « فلما اختلف الناس ، وتباينت المراتب ، قيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد : ظهرت البدع وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق أدعوا أن فيهم زهاداً ، فانفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة بأسم التصوف والصوفية » .

ذلك هو التخصص فى التسمية وسره ، أما التخصص فى المنهج الروحى ، ذلك التخصص الذى انجب لنا هذه الآداب والمثل فى المعرفة والسلوك فقد جلاه لنا العارف الإمام الشعرانى بقوله : « التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها ، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها » .

ذلك هو الفيصل : لقد انبثقت المعرفة الصوفية بكل ما تشتمل عليه من أحوال ومقامات ومذاقات وفيوضات وإلهامات ومثاليات ، انبثقت هذه المعرفة فى القلوب المخبتة لله ، حينما استنارت بالعمل بالكتاب والسنة ، تطبيقاً وتصديقاً لقوله صلوات الله وسلامه عليه : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » .

أما حد التصوف ورسمه ، فقد كثرت أقوال الصوفية وتعددت فى وصفه ونعته.

يقول ذو النون المصرى : التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » .

ويقول سهل بن عبد الله التسترى : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله دون البشر ، واستوى عنده المال والمدر » .

ويقول معروف الكرخى : هو الكشف عن الحقائق . واليأس مما فى أيدى الخلائق » .

ويصف إبراهيم بن أدهم الطريق الصوفى بقوله : أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك ، وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك حتى لا ترجو إلا ربك ، ولا تخاف إلا ذنبك ، وترسخ محبته فى قلبك حتى لا تؤثر عليه شيئاً » .

ويقول الخواص : ليس هو القلقلة باللسان ، وإنما هو أذواق ووجدان ، ولا يؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق وليس ينال بالقيل والقال ، وإنما يؤخذ من صحبة أهل الكمال .

ويقول سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد : التصوف تصفية للقلب عن موافقة

البرية ، ومجانبة الدواعى النفسية ، وحيازة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة » .

ويقول أبو الحسين النورى : التصوف الحرية والكرم . والسخاء وترك التكلف .

ويقول : الصوفى من أحس قلبه السلامة من الدنيا كما أحسها قلب إبراهيم فأطاع أوامر الله . ومن كان تسليمه كتسليم إسماعيل وحزنه كحزن داود ، وزهده كزهد عيسى ، وشوقه كشوق موسى : وإخلاصه كإخلاص محمد صلوات الله وسلامه عليهم » .

ويقول العارف الشيخ زروق : قد حُد التصوف ورُسم وفسر بوجوه تبلغ الألفين ، ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى وإنما هى وجوه :

وهذه التعريفات للتصوف ، تصور لنا جوانب من التصوف وتعبر عن اتجاهات له . ولكن التصوف فى جوهره عندى : هو الصلة الحية الحارة بالله سبحانه وتعالى . هو علاقة حب ومعرفة بالله ، هو تخلق بأخلاق الله ، هو الربانية التى ترتفع بالإنسان إلى أعلى وأسمى صور الكمال ، هو المراقبة والمحاسبة ، هو الحساسية اليقظة المتفتحة لملكوت السموات والأرض ، هو تجربة ذاتية للوصول إلى الإنسان الكامل خلقاً وعملا ومعرفة .

أما ماهية التصوف ومنهجه وطريقه . فيقول أبو القاسم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام » .

ويقول حجة الإسلام الغزالى : فماذا يقول القائلون فى طريقة أولها وهى أول شرائطها . تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى .

ويقول أيضاً : الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمعوا عقل العقلاء وحكمة الحكماء . وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً

من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلونه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » .

ويقول أبو الحسن الشاذلى موضحا للدستور الصوفى فى السلوك: لاتنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقيناً » .

ويقول أبو اليزيد البسطامى : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة » .

ويقول العارف الشعرانى : إذا رأيت من فتح له فى التصديق بهذه الطريقة فبشره ، وإذا رأيت من فتح له فى الفهم فاغبطه وإذا رأيت من فتح له فى النطق فيه فعظمه ، وإذا رأيت منتقداً ففر منه فرارك من الأسد وأجره :

أما تخصص التصوف ورسالته فيوضحها لنا العلامة السراج الطوسى فى منطق علمى رائع . فيقول :

«فليس من مذهبهم النزول على الرخص وإنما مذهبهم الأخذ بالأقوى وبالأكمل . وليس من مذهبهم التأويل . وليس من منهجهم الترف والتعالى والتغاضى عن دقيق الشهوات النفسية والقلبية .

ثم أنهم بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية ، وتعلقوا بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات .

ومن أخلاقهم التى اختصوا بها القناعة بقليل الدنيا عن كثيرها وترك العلو والترفع ، وبذل الجاه للمحتاج ، والشفقة على الخلق والتواضع والإيثار . وبذل الندى وكف الأذى . وحسن الظن بالله والإخلاص والمسابقة فى الطاعات والمسارعة إلى الخيرات والتوجه إلى الله تعالى والانقطاع إليه والصبر على بلائه والرضا عن قضائه والصبر على دوام المجاهدة ومخالفته الهوى ومجانبة حظوظ النفس والمخالفة لها .

ثم أن من آدابهم مراعاة الأسرار ، ومراقبة الملك الجبار ، ومداومة المحافظة على القلوب بنفى الخواطر المذمومة ، ومساكنة الأفكار الشاغلة التى لا يعلمها غير الله عز وجل . حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة ، وهموم جامعة .

وللصوفية التخصص الأعلى فى أمراض النفس والقلب ودقيق الرياء ، والشهوة الخفية ، والشرك الخفى وطريق الخلاص من ذلك كله مع الأنابة الكاملة إلى الله .

والصوفية تخصص فى علوم مشكلة على الفقهاء والمحدثين . تخصصوا فى العوائق والعوارض والحجب وخفايا السر ، ومقامات الإخلاص وأحوال العارفين ، وحقائق الذكر ، ودرجات القرب ومنازل التفريد ، وحقائق العبودية ، وفناء رؤية الأعواض وبقاء رؤية المعطى ، وعبور الأحوال والمقامات .

ذلك بعض تخصص التصوف فى العالم . وذلك بعض رسالته . وهو تخصص ورسالة ليست لسواه . أنه وحده الذى يحلق فى الأفق الأعلى الرسالة الإسلامية . وهو وحده الذى تخلق بخلق هذا الأفق وذاقه وتعلق به .

أنه وحده الذى يحمل رسالة الصدر الأول من الصفوة . رسالة العقيدة الكاملة . وتلك رسالة لا ينهض بها إلا أهل الله وأحبابه .